عبث الحياة

— ١ —

للقرن التاسع عشر في مصر أسرة العريقة في المجد، الاصيلة في العظمة. غير ان هذا العصر لم يكد يشرف على الزوال حتى زالت معهُ تلك الاسر التي بسم لها الدهر وفرد لها مزار الامل البسام اكثر من ثمانية عقود متتالية من الزمان. تلك الظاهرة الاجتماعية تحتاج الى بحث وتحتاج فوق ذلك الى تعمق في النظر لاكتناه الاسباب التي قعدت بتلك الاسر بعد ان رتعت في بحبوحة الغنى وتقلبت في حجر النعمة، ثم لم تلبث ان ضربها الدهر ضرباته القاسية، فسلح افرادها بخناجر اعدها لمن يريدون التضحية بانفسهم على مذبحهِ المعظم، فاغمدوها في قلوبهم حتى النصاب

***

حنفي بك سليل اسرتين من اعرق الاسر التركية المتمصرة التي نالت حظًّا من الغنى والجاه، ذلك الغنى الذي ورثهُ رؤساء الجيش والحكومة في اوائل القرن التاسع عشر عن نظام القطائع الذي ظلّ سائداً على البلاد طول عهد المماليك. وهو فتى طويل القامة حسن الطلعة جميل الوجه، تعلم في المنزل ثم في المدارس العمومية، فنال من العلم حظًّا ومن الادب نصيباً غير وافرٍ، ولكنهُ كافٍ لان يضعهُ في مصاف المتعلمين

ورث عن اسرتيهِ اللتين ينتسب اليهما ارضاً واسعة في اقليمي الغربية والجيزة، واملاكاً في كثيرٍ من نواحي القاهرة، مسقط رأسهِ ومثوى اسرتهِ الاول. غير انهُ شبَّ كما يشبُّ غيرهُ من ذوي الترف متلافاً متلافاً، لا يبقي على ما بين يديهِ الأَّ ريثما يجد فدراً غيرهُ يبذلهُ رخيصاً في سوق الملاذ الموهومة والشرف المبتذل

وكان لهُ اب شيخ كبير قعدت بهِ السنون عن ان يجد وسيلة يصد بها ابنهُ عن الاندفاع في سبيل الشهوة العمياء، وطالما احيى الليالي الطوال تائهاً في مهامهِ التفكير غائصاً في لجات من الافكار الحزينة. فكم توارت على ذهنهِ ذكرى الوقائع التي صارع فيها الابطال، والملاحم التي طارت فيها الارواح، وبيعت فيها النفوس رخيصة في ميدان الجهاد الدنيوي، وكم تخيَّل نفسهُ قائمة على حد سيف من تلك السيوف التي كانت تلمع من حولهِ في شمس بلاد العرب الصافية، او تحت سماء بلاد الاغريق الشعرية، فتمنى لو

ان حملهُ وخيالهُ اصبح يقظة وحقيقة واقعة ، وكم تمنى لو انهُ مات في ميدان الجهاد والعز ، على أن يرى لهُ ولداً وحيداً دفعتهُ يد الاقدار الى تلك الهوة الاجتماعية العميقة التي لا قرار من التردي في حمأتها الاَّ بالموت الادبي او العوز الشديد والفقر المدقع . وكلاهما كبير على نفوس لم تعرف سوى العظمة ، ولم تحظ الاَّ بأبهة الملك والسلطان

قدر لذلك الشيخ ان يعيش بضع سنوات قضاها في حزنٍ وألم ، ولما ادركتهُ الوفاة كان ولدهُ بين كؤوسهِ وقيانهِ ، فلما طيّر اليهِ الخبر ومثل بين يدي والدهِ المحتضر ، كان الموت قد بلغ من الشيخ مبلغاً اعياهُ عن النطق ، ولكن كان في عينيهِ بقية من شعاع الحياة ، فنظر الى ولدهِ نظرة تنم على كل احزان قلبهِ ، ثم اطبقهما ، فسالت منهما دمعتان هما آخر ما بذل ذلك الشيخ من جهد في الحياة

مضى الاب في ذلك السبيل الذي سيسلكهُ كل حي ، ومضى الولد في سبيل كثيراً ما سلكهُ من قبل العديدُ الاوفر من ابناء آدم ، سبيل الغواية والهوى ، سبيل الشهوة والانفعال

— ٢ —

— كيف تستطيع ان تعيش يا بني في هذه الوحدة الالية ، وكيف لا تفكر في ان يكون لك زوجة يسكن اليها قلبك ، وتبثّ لها احزانك ، وتدبر من امرك ما انت عاجز عن تدبيره

— مالي وللزوجة يا أماه . ومالي ولذلك السجن الابدي الذي القي بنفسي فيهِ مختاراً ، ومالي ولتكاليف الزوجة وسياستها ، وانتِ تعلمين ان نفسي قد فطرت طماحة للحرية المطلقة ، وثابة الى الملاذ . واذا كان الزواج مجرد شهوة تقضى فالتنقل خير من العكوف ، واذا كان تدبيراً لامر انا عاجز عن تدبيره ، فاني تارك لك تدبير ذلك الامر

— وهل انت ضمين بقائي الى ما شاء الله ، وانا ام بلغت من الكبر مبلغاً لا آمن معهُ غدرات الزمان بالكهول . وبعد كل هذا افتعتقد ان كل متزوج مسلوب الحرية ، احمق لانهُ القى بنفسهِ في سجن الزواج مختاراً ؟

— بالله عليك يا أماه لا تكثري على سمعي في هذا الكلام فاني امقت الزواج كل المقت ، بل كدت امقت كل الآباء لانهم ازواج

— سمعاً وطاعة يا بنيّ . كفى عندي ان اراك بخير . كفى عندي ان اجدك فتيًّا قويًّا ، وضاح الجبين باسم الثغر . واي شيء اطلب من هذه الدنيا غير هذا . اي شيء غير

هذا تطلبهُ امّ لولدها الذي خرجت به من كل ما في هذه الدنيا الواسعة من ملاذ الحياة

— بورك فيك يا أُماه . فذلك ما ينتظر منك ولدك الوحيد في هذه الدنيا . مالي ولابناء آدم وبنات حواء . أَلم تسمعي ما قال فيهم بشار الضرير

ابليس خير من ابيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجّار
ابليس من نار وآدم طينه والارض لا تسمو سموالنّار

وكرت على هذا الحديث السنون . فما زاد حنني بك الاّ تردياً في حمأة الشهوات . وما زادت امهُ الاَّ ابعاناً في وحدتها واسترسالاً مع احزانها

***

اصبحت الام ذات يوم وأزمة الصدر تكاد تزهق روحها ، فاسرع اليها ولدها في خماره ونشوته ولكنهُ لم يكد يرى حال امهِ حتى افاق للدنيا الحافة بهِ ، وتواردت الى ذهنهِ الخواطر سراعاً متكاثرة. وتمثل لهُ شبح اليتم أُمّاً وآباء فجزع وآلمهُ الحزن وتملكهُ الاسى ذلك انهُ لفرط ما امعن في شهواتهِ كان قد فقد أكثر قوى العقل ، ولم يبق لهُ الاَّ بقية من وجدان قذفت بالدمع الى عينيهِ ، ففاض هتوناً

راعهُ شبح اليتم لانهُ كان كالطفل الصغير يجزع لغير حقيقة ، او هو يجزع من حقيقة لا بد منها . ولم يكن قد قدّر للام ان تموت في تلك الساعة ، بل كانت اجالها مرهوناً الى وقت قريب . ولكن شاءت الاقدار ان تملكها ازمة الصدر وان يجزع ولدها ليكون من مجموع ذلك ظرف تشقى بهِ احدى بنات حواء . فان الام لم تلبث لن تستفيق حتى نسيت ما كانت فيهِ وبدأت تفكر في امر ولدها الوحيد ، فحادثتهُ في حالها وفي مصيره من بعدها ، وكانت ثورة الشعور لا تزال مضطرمة في قلبه ، فاذعن لارادة امهِ ، وقبل ان تكون لهُ في الحياة شريكة تحمل احزانهُ كاملة

وشاء القدر المحتوم ان تكون زوجتهُ من بنات العظماء فانت «هنيّة» بنت النعمة وربيبة الجاه ، انتقلت من بيت أبيها الى بيت زوجها ، فما رأت الاَّ أمّاً مشرفة على الموت وما رأت الاَّ زوجاً هدمتهُ السنون ، وحفرت الشهوات حتى قدميهِ هوة سحيقة من الموت الادبي ، فلاح كالكهل الفاني ، وان كان لا يزال في ريمان شبابهِ وميعة صباهُ. فاخذت حرارة قلبها التي بعثت في نفسها الآمال كبيرة ، تهبط شيئاً فشيئاً فانية في ثلج ذلك المشيب الذي حفت بها اسبابهُ . ولكن ما كادت عوامل اليأس تدب في هيكل الامل الذي ملأ صدرها ، حتى شعرت ذات يوم بشيء يختلج في احشائها ، فانتفضت مناجية نفسها :

« أي طفلي المعبود ٠ ليعش الامل في صدري لكي اعيش من اجلك »

— ٣ —

هل حقاً انك لم تسمع شيئاً من كلام احسان يا قمراز ؟

— كلا يا سيدتي ، فاني لم اسمع منهُ حرفاً . ولكن رأيتهُ يقدر الى الحور في صمتهِ وسكونهِ المهيب ٠ مصفر الوجه غائر العينين صامت اللسان

— هنيئاً لك أيها الشيخ ٠ فقد عشت من غير ان يتسرب الى قلبك الحب الابوي يوماً . فيالسعادتك ويا لهنائك بوحدتك الحزينة الجميلة

وانهملت من عيني « هنية » الدموع فائضة من شؤونها

***

الزمان في السابع من شهر آب عام ١٨٩١ ، وفي اقليم الفيوم الجميل ، حيث تذهب اشجار النخيل برؤوسها المهيبة في السماء ، وتختفض خيران الارض اغواراً عميقة . والسيدة « هنية » تخاطب الشيخ قمراز البستاني عن ولدها احسان الذي تمخضت عن حياته الاقدار في شهر يناير سنة ١٨٦١ ، فهو الآن في فجر العقد الرابع من عمره ٠ صبوح الوجه مفتول السواعد شاحب اللون كبير العينين اقنى الانف ، يتهدل على رأسه شعر كأنهُ سبائك الذهب الصفراء قليل الكلام كثير الصمت ثابت الخلق ، سيد في كل شيء ، حتى في سكونه ونومه . فكان على صغر سنهِ كامل الرجولة قوي الشكيمة شديد المراس . ولكنهُ كان كثير الاحترام لابويهِ مفرط الخضوع لارادتهما، حسن المعشر حلو الحديث في رصانة وتفكير عميق . محب للصدق والعمل ، مقسط في كل شيء حتى في تصوراتهِ وخطرات نفسهِ . وكان ابوهُ قد بلغ بعد ثلاثين عاماً ونيفاً من سيرتهِ الاولى مبلغ الكهول الذين هدمتهم الايام ، وانتقصت من حيويتهم حوادث الزمان

قامت هنية على تربية ولدها احسن قيام ، فبذلت ببدنهِ عنايتها بتكوين عقلهِ ، وبذلت في سبيل هذه الغاية اقصى الجهد . ذلك لأن الدَّين كان قد أثقل موارد الاب اثقالاً احوج الام الى الاقتصاد في كل شيء . ولم يبلغ احسان الثلاثين حتى كان قد اتم تعليمهُ وخرج من الدرس والعكوف على الحفظ والتحصيل الى عالم الحياة العامة ، عالم الجهاد والجلاد . ولم تكن نزعات نفسهِ لتريحهُ من التفكير في امر مستقبلهِ . فكثيراً ما ناقش أباهُ ، وكثيراً ما ناقشتهُ امه في ذلك . غير انهما لم يريا منهُ الاّ اصراراً على الطموح الى اعلى المناصب وأرقى الدرجات الاجتماعية . فتركاهُ لتصوراتهِ وموحيات

نفسه ، قائمين بان الايام سوف تكسر من حدة شبابه ، وسورة عقله الكبير

غير ان الام لم تلبث على فرحها بولدها قليلاً حتى لاحظت ان فترات تأمله قد اخذت تطول شيئاً فشيئاً ، وان صمته اصبح اعمق وابلغ تعبيراً عن الالم الصارخ من اعماق نفسه ، وعن العاصفة الثائرة في جنبيه . فكلمت في ذلك اباه . ولم يكن الاب باحسن من الام حظاً في الفوز بشيء من سر احسان . ولما الحت عليه هذه الاحزان التي لم يجدا لها من باعث معروف نصح لهما الاطباء بتبديل الهواء ، فلم يمانع احسان على انه اختار اقليم الفيوم ، حيث يقوم قصر منيف تملكه امه هبة عن ابيها تحيط به حدائق غناء ، وتخفض من حوله خيرات ذلك الاقليم الجميل بمياهها الجارية ، واشجارها الباسقة ومناظرها الطبيعية الفاتنة

— ٤ —

الليل مرخٍ السدول . والطبيعة صامتة ما ينطق لها لسان . والارض هامدة كأنها ميت فارقته الحياة ، فلحق بمن غبر من طوتهم عصور التراب

وكان المقبل على ذلك القصر الذي يسكنه احسان يرى نوراً ضئيلاً ينبعث من حجرة في الطابق السفلي ، وقد تخلل الضوء ما بين الشرائح الخشبية القديمة ، فاذا اطل من بينها رأى شاباً في فجر العقد الرابع مستلقياً على مقعد كبير من فوقه الآلة حورلبس يظل احساناً بجناحيه السحر بين يحفظه من سوء ما خبأت له الايام

ولكم احيا ظلام الليل من امل وكم ولد من يأس . وانت إن فتشت في قلب احسان في تلك اللحظة لما وقعت على امل ولا على يأس . بل وجدت حيرة وشكاً يزكيهما الامل ويذهب بهما اليأس . فلم يكن الامل ولم يكن اليأس الا حالتين تتناوح من حول الشكوك في قلب احسان رياحهما . وكان كلما اقتلعت رياح الامل من قلبه الشكوك هب قوياً . وكم هبت عواصف اليأس على تصوراته فارتدت شكوكاً شتى . وكانت ترتسم على وجهه ابتسامة مريبة يعقبها قطوب مخيف . اما الابتسامة فكان باعثها الامل . واما القطوب فكان باعثه اليأس . فاذا تمعنت في جلسته تلك وفي توارد الصور على وجهه الشاحب لما تخيلته الا تمثالاً اخرجته كف نقاش ماهر ليعبر لكل عين عن معنى من معاني الحياة ، يختلف اثره في النفس باختلاف العين الناظرة الى مبعثه

ولم تكن تسمع في تلك الحجرة من حركة اللهم الا دقات ساعة ذلك الشاب ودقات قلبه . وكان ينعكس على وجهه ضوء ضعيف منبعث من سراج فيه شموع على العادة القديمة

التي اتيحت في قصور العظماء حتى عهد قريب ،وظل على حاله فترة لا يتحرك فيه من شيء حتى انتبه الى وقع اقدام تقترب من حجرته فتحرك ،ولما ان حقق مصدر الصوت غادر مجلسه الى باب الغرفة فاذا بالشيخ تمراز البستاني يمد اليه يده برزمة من الخطابات عليها اختام البريد

— هل ادركك احد ايها الشيخ وانت ذاهب الى القرية لتحضر البريد

— كلا يا سيدي . فاني اخذت انسل بين الاشجار كالثعلب اروغ من كل ما اشك فيه . وما زلت متمهلاً حتى بعدت عن المنزل ثم اطلقت ساقيّ للريح

— حسناً فعلت يا تمراز خذ هذا الدينار جزاء امانتك وحسن خدمتك لسيدك الصغير

— انك لتغمرني بفضلك يا سيدي وستري من اماتني ما سوف تضاعف عليه مكافأتي

— بلا ريب . اذهب الآن

وعاد احسان الى طاولة من خشب الارز الجيد وجلس اليها يفحص البريد بعين غير مطمئنة مناجياً نفسهُ :

— ها قد مضى اسبوعان ولم تكتب إلي دلال ،حرفاً واحداً . فماذا عسى ان يكون الباعث على ذلك ؟ العلها مريضة ؟ ام تكون قد نسيت عهدي ونفضت عن قلبها خاتم حبي ؟ ايمكن ان يكون لهذه الحياة قيمة بغير الحب ؟ واي سر من أسرار الوجود هو ادعى للتأمل من هذا السر الخفي ، سر القلب المولع بحب فتاة من بنات حواء يسكن بقربها خفقانه ،ويتنضب مع بعدها ماؤه وتزول حيانه ؟ واية عاطفة من عواطف الحياة الانسانية هي اشرف من هذه العاطفة التي تفيض معها الحياة ملأى بصور الجمال والجلال ، وترتد بدونها حزينة جرداء ؟ كم اريد ان اشم تلك الزهرة الناضرة التي القاها الحظ في سبيل حياتي ، وكم اشعر بحاجتي الى سماع دقات قلبها تجاوب دقات قلبي

وأخذ يقلب في اوراق متناثرة على مكتبه فعثر بينها على ورقة اخذ يقرأ فيها خطرات كتبها منذ بضع سنين . واذا به يقرأ

— لا اقول في هذه الحياة قول ابي العلاء « هذا جناهُ ابي عليّ » بل اقول هذا حكم القضاء كان سراً حملهُ الابد حتى تمخض به زمني . وما انا بالمضغة اللينة يطحنها الزمن ويبتلعها الدهر بنوائبه ونكباته ، بل الحصاة الصلبة تقاوم صدمات الاقدار . فلم أجزع ؟ اني قوام على نفس بالارادة والصبر الجميل . ولكن للصبر وحسن التدبير حداً ان بلغ اليه المرء فقد صبره وساء ما دبر . على ان القبول رداف والحزم عثراته تخاف . والعاقل من وازن بين حدي المنفعة والحاجة. وكلا الامرين يدعوني لان اشرك في حياتي نفساً اخرى

يكون لها من ايامي شركة وفي حظي من الدنيا نصيب . واني لاقدم على امر ان خانني فيهِ الحظ فسكون آخر سهامهِ يوجهها الى صميم قلبي . وان بسم لي الزمان وعاضدتني الاحوال فعند ذلك اقوم في نفسي اول نهضة اضع عليها اساس ما أريد لنفسي من مجد . عند ذلك تنبت في غصون حياتي الجافة اوراق الامل فوّاحة وضاحة ويخضر روض وتبسم حياتي . اريد نفساً خلصت من اكدار الحياة غضة الاهاب كبيرة الآمال غمورة المطامع تجول في عينيها معاني النظرة النقية ، كما تجول في اوراق الزهرة الناضرة قطرات الفجر الندية . أريد ان يكون قد قذف بها تلك القضاء والقدر الى عالم الموت والحياة ، وقد تنقلت في منازل العمر حتى خطت العشرين ، فيلقيها الحظ في سبيل حياتي كقبس من النور الآلهي الفياض يضيء شعاعه اللامع نواحيَ من نفسي احسب أن مصائب الارض قد احلتها حتى ليتعذر ان تصل اليها مراحم السماء . تلك هي التي اود ان يكون لها في حياتي شركة ونصيب . على اني لم اجدها بعد ، ولعلي يوماً من الايام الاقاها »

ثم القى بالورقة من يدهِ وملءُ نفسه اليأس متمتماً — « لقد القى بها الحظ في سبيل حياتي فعثرت بها . ترى هل الاقدار تنتزعها من بين يدي تارة اخرى »

ثم صاح بملء نفسه — « ايتها الاقدار العاتية . صبي عليَّ لعنة الابد ولا تبق لي على شيء الأ حبي فانهُ يفرج كربتي ويؤنس وحشتي »

واذا بالشيخ عزاز يركض عدواً ميمماً نحو غرفة سيدهِ الصغير

— ٥ —

عزيزي احسان

لئن تأخرت عنك رسائلي ، وانقطعت اخباري حيناً من الزمان ، فان قلبي لا يزال يلهج بذكرك ، ووجداني يفيض اليك شوقاً وحنواً . وكيف انساك يا من أصبح للقلب سلوة ولمصائب الحياة عضداً ، وللملمات الدهر سنداً . أني استطاعة القلب البشري أن يسلو حبيباً احبهُ لا لشيء الأ لانهُ احبهُ ؟ وهل في الحياة الانسانية باجمعها قلب فتاة انطوى على الطهر احب ثم سلا ؟

ما انقطعت عنك اخباري الأ لان القدر قطع منذ ايام عمادي ومضى بنادي ، الى حيث يمضي كل حي . مضى بأبي في ذلك السبيل الذي سوف نقطعها حتى اذا ما بلغنا المنتهى حمدنا السرى وقررنا بسفر الحياة عيناً

اصبحت في الحياة زبدة تراك . فبين يديك الطاهرتين التي بكل ما لي في هذه

الحياة . ومالي فيها سوى شرفي وعرضي وعضافي . وهذه اشياء عجز قتوالي في اواخر ايامه ان ينال منها منالاً او ان يفرع لها باباً . ولقد احتفظت بها امانة في عنقي حتى القيها في عنقك ، فالى امانتك اعهد بها ، وان كرم اخلاقك وطيب عنصرك وسمو عواطفك كفيلة بان تحفظ لي في هذه الحياة تراثي الادبي وميراثي الانساني

وما استطيع ان ازيد على ما كتبت حرفاً ، فان قلمي عاجز عن ان يعبر لك عما يختلج بقلبي من الانفعالات الثائرة ، او عما يساور ذهني من التصورات التي امتزج فيها الحزن على الماضي ، بالامل في المستقبل » « دلال »

وكرت على هذه الحوادث سنوات سبع ما زاد فيها حب احسان ودلال الا تمكناً ، فكان حباً صفى من اكدار الغرض والمنافع ، وعلاقة بين القلوب هي اشبه الاشياء بالجاذبية التي تحفظ نظام الاجرام بنسبة غير زائدة ولا منقوصة ، او هي كألفة العناصر التي تجذب كل عنصر الى ما يألف على قاعدة لا ينالها خلل ولا ارتباك

— ٦ —

في اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٩٨ كانت دلال جالسة على شرفة تطل على حديقة امام منزلها الصغير تطيل النظر الى زهرة من النرجس الوت برأسها الى غدير يجري فيه الماء من نافورة في وسط الحديقة . وكانت مستغرقة في احلامها اللذيذة مناجية نفسها باسطورة الصدى ونرجس متمتمة :

ايها الفتى « نرجس » الذي مسخته الآلهة في معتقد الاغريق زهرة تعجب بها ، كيف صددت عن حب « الصدى » حتى بلى لحمها وفرى عظمها ؟ ولماذا لم تقابل الحب المحرق بحب مثله ؟ وما هو السر الذي يؤلف بين بعض القلوب وينفر بين البعض الآخر ؟ هل لهذه الحياة التي نحياها الآن سر غير سرها المفضوح امامنا ؟ ام ان الطبيعة لم تجد علينا الا بقدر ما تسع عقولنا واحلامنا ، في حين انها جادت عليك بسرها ثم قلبتك زهرة ليبقى سرها في اعماق جمالك مصوناً مكنوناً ؟

« ايها الفتى » نرجس الذابل الجميل . كنت في حياتك الاولى شاباً فاتن الجمال ، وانت سليل آلهين من آلهة الماء ، فسما باصلك الى النجم فرع طويل صدك عن ان تحب « الصدى » وان تمنحها من عواطفك ما تمنحك من عواطفها ، فهل يمكن ايها الفتى الجميل ان تكون مراتب الشرف ومنازل الجاه حائلة بين القلوب والحب ؟ لقد اخطأت ايها الفتى ان كنت صددت عن « الصدى » لمجرد انك سليل آلهين من آلهة الماء البعيد الاغوار

الجمّ الاسرار . والاّ فلماذا صحكت الالهة « زوس » زهرة ما ترى الاّ على حواشي الغدران كما كنت في حياتك تطيل الوقوف على حافة الماء الراكد لتنظر الى جمالك الفتان في صفحتهِ الصافية

اما انت ايتها الفتاة الحزينة التي لم يبق منها شيء الاّ القدرة على ترديد ما تسمع او يقال ، فاذا قلت إحسان !!!

ولم تكد « الصدى » تردد نداء دلال حتى فتح الباب وظهر لديهِ إحسان كأنّ « الصدى » جذبتهُ بقوتها السحرية فلم تردد اسمهُ ، بل حملتهُ الى احضان دلال ذاتاً كاملة الهيكل والجثمان

ظهر احسان لدى الباب ، ولكنهُ وقف واجماً جامداً . غير انهُ على الرغم من احتفاظهِ بكل ما كان فيهِ من صفات الرجولة فان اصفرار وجههِ كان مهيباً مخيفاً . فتقدمت اليهِ دلال في سكون ورهبة ولم تفه بكلمة بل القت بنفسها بين احضانهِ فائضة الدمع جمة الشجون

« لقد مات أبي فجأة بعد ان جُرّد من املاكهِ منذ ساعة . ولحق بمن مضى من اوائلنا . لحق بأبيك وبأمي . ولم يبق لي في الحياة سواك فتأهب للسفر لان الحياة هنا غير محتملة في الفقر بعد العزة والعوز بعد الجاه »

ثم تركها حائرة وعاد ادراجه ليواري جثة ابيهِ التراب

وفي اليوم الثاني كان احسان ودلال زوجين تحملهما الجفنة الجفار الى سورية حيث صمما على ان يقيما الى آخر حياتهما عاملين بكد سواعدهما ليعيشا

— ٧ —

عند مدخل الغابة الملتفة الاغصان كوخ صغير من حولهِ حقل وحديقة ، وبالباب طفل يمرح فرحاً غرداً كأنهُ الهزار في الربيع . وكان كل ما بالكوخ ساكناً مطمئناً ، كأن اطمئنان القلوب التي تسكنهُ ينبعث في جوهِ السعادة والهناء . وفي هذا السكوت الشامل انبعث صوت شجي في نبراتهِ حنو وجمال قائلاً :

— ليس لدينا وقود وقد كاد الليل ان يرخي على الطبيعة سدوله

— حسناً يا معبودي . جهزي لي الحبل والفأس

وحمل احسان الحبل بيدهِ والفأس على كتفهِ ، ومضى نحو الغابة متغلغلاً في الظلام

برقين اسماعيل مظهر